عفيفى مطر

رهان على الشعر

غيب الموت الشاعر المصرى الكبير محمد عفيفى مطر يوم الاثنين الموافق ٢٨ يونيو ٢٠١٠ عن عمر يناهز ٧٥ عاما، على أثر غيبوبة استمرت أسبوعين، وبعد أن تمكن المرض منه، حيث كان يعانى من تليف كامل بالكبد.

وتمنى مطر كما يذكر المقربون منه أن يموت دون ألم، وكان يقول دائما "أنا لا أخشى الموت، ولكن أخشى الألم"، ولإحساسه بدنو أجله اشترى قطعة أرض بقريته بنى عليها مقبرة ليدفن فيها.

يعتبر عفيفى مطر أحد أهم شعراء جيل الستينات الأدبى على مستوى الوطن العربي، وعلى رأس طائفة الشعراء المجددين فى القصيدة العربية، وقد عانى الكثير طوال حياته بسبب آرائه ومواقفه السياسية الصلبة والواضحة وضوح الشمس فى عز الظهيرة، والتى دفع ثمنها غاليا سنوات من عمره قضاها خارج حدود الوطن فى منفاه الاختيارى فى السودان ثم فى بغداد أثناء فترة حكم السادات، ولكنه ظل صلباً عنيداً لم يبع مبادئه، ولم يراهن

obeikandl.com

عليها، ولم يتقرب لسلطة ولم يتزلف لصاحب جاه، وكان رهانه الوحيد على القصيدة التى أخلص لها وأعطاها جل عمره ووقته، فلم تبخل عليه هى الأخرى، وأعطته سرها وباحت له بمكنونها فصارت عشيقته ومعشوقته، ورهن يديه يطوعها كيفما يشاء، ويبعث فيها من روحه وعنفوانه وثقافته الموسوعية، وفلسفته فى الحياة، لذا جاءت قصيدة "مطرية" – إن جاز لنا أن نسميها – لا تتشابه مع قصائد أخرى، ولا تستنسخ ولا تقلد بل هى عصية ومتمردة على ما عداها وكأنها ماركة مسجلة.

لحظة الميلاد

ولد عفيفى مطر فى رمله الأنجب بمحافظة المنوفية عام ١٩٣٥، وعن ميلاده يقول عفيفى مطر فى بورتريه نشرته له مجلة الثقافة الجديدة، فى يوليو ٢٠٠٠ ضمن الملف الذى أعده الشاعر ماهر حسن للمجلة بعنوان: (محمد عفيفى مطر، تجربة طويلة عكس الجهات الأربع) قالت لى أمى إنها ولدتنى فى الحقول، ذهبت لتملأ جرتها من الترعة البعيدة "النعناعية" ففاجأها طلق المخاض وهى تغمس الجرة فى الماء، فدخلت بين أعواد الذرة، ودون مساعدة من أحد، أخرجتنى إلى الدنيا، ووضعتنى فى حجرها وعادت بى مسرعة، وعلى ساقيها كما قالت تنحدر خيوط الدم، تحت شمس الصيف "القادح" ولعلى من يومها أحمل لحظة

الميلاد وشما جسديا وروحيا لا يزول، هكذا كانت لحظة الميلاد كما رواها عفيفى نفسه، أما عن فترة التكوين الأولى له يقول عنها الشاعر محمود قرنى "رحلة مطر الطويلة التى شقت عليه وشق عليها تنفلت من بين أصابع مسقط رأسه رمله الأنجب فى بيت طينى واطئ ولأسرة متوسطة تتولى "العمودية" فى الريف المصرى للوهلة الأولي، تنفلت الرحلة بشقتها إلى مدرسة المعلمين العليا، ثم إلى العمل بالتدريس فى محافظة كفر الشيخ، ثم مجلة سنابل التى قادت الطليعة الإبداعية فى نهاية التعاسة الستينية، ثم إلى دراسة الفلسفة والتعلم على أساطينها وأربابها فى جامعة عين شمس، ثم الرحيل إلى السودان هربا من أتون المطاردة الساداتية ومنها إلى بغداد وحيث المتنبى والكرفى وحيكزر والسياب، وحيث عفيفى مطر يعلك الشعر فى خطوات هى الأكثر مرارة كما يذكرها، وبين هاتيك العواصم تتوزع الدماء السوداء الذى أهدرها حجام جاهل وحكام قساة، وأزمنة تهتكت فيها أستار الحلم، وانفتحت فيها أبواب الخزى على مصارعيها كان ثمة أشياء تتخلق خلف عفيفى مطر المهاجر الأبق، كان حيث لا يدركه هنا وهناك، فى قلب الجامعة وفى المنتديات، وفى أسواق الكتب وأسواق السكاري، بين ثنيات الأوراق الشابة، السبعينية وبين جيعات ستينية تجأر – على البعد – بالخوف والهلع من مجرد التذكر إنه عفيفى مطر طوق الشعر ومطوقه، المارد

المجنـد لخدمـة الـكلام، والشـبح الطالـع مـن بريـة الوحشـة وصـدود الأوطـان".

نقلات نوعية

وطـوال هـذه الرحلـة اسـتطاع عفيفـى أن يصـدر عـدداً كبـيراً مـن الدواويـن الشـعرية، وكل ديـوان مـن دواوينـه كان يمثـل نقلـة نوعيـة ومعرفيـة مختلفـة فـى مسـيرته الشـعرية المتـدة مـن سـتينات القـرن الماضـى وحتـى لحظتنـا الحاضـرة، وكمـا يقـول عفيفـى نفسـه عـن بداياتـه الأولى فـى نفـس البورتريـه: "انتظمت حركـة الدائـرة الأولى فـى: مجمـرة البدايـات، الجـوع والقمر، من دفـتر الصمـت، يتحـدث الطمـي، وهـى الدواويـن التـى تشـكل بطاقـة تعريـف أولى بنفسـى وأهلـى وظـروف ولادتـى الشـعرية بـين الأرض والنهـر ومسـميات الحـواس الخمـس ومعطيـات التعـرف المباشـر علـى معانـى الوجـود – فـى– عالمـي، وتأسـيس ملامـح ماهيتـى وهويتـى عنـد افتتـاح القـول، وهـى التى سـتنضح وتترشـح منهـا وتمتـد أتسـاعا وعروقـا لا فـكاك منهـا طـوال حياتـي، تنقيبـا ونقصـا وعـوداً علـى بـدء، إلحاحـا واكتشـافا وتوسـيعا لرقعـة الرؤيـة والتأمـل ومحـاولات الإعـلاء الدائبـة إلى أفـاق المعنـى "نشـرت الدواويـن المذكـورة كغيرهـا مـن الدواويـن نشـرا عشـوائيا حسـب مقتضيـات الحصـار والحـذف والمطـاردة والمتـاح مـن فـرص النشـر خـارج مصـر، والديـوان الأول لم ينشـر إلا فـى سـنة ١٩٩٤ بعـد مـا يقـارب الأربعـين عاما مـن كتابته".

هكـذا كانـت بدايـة نشـر عفيفـى مطـر لدواوينـه التـى توالـت فـى الصـدور بعـد ذلـك، لتأتـى علـى النحـو التالـي: (فاصلـة إيقاعـات النمـل، رباعيـة الفـرح، أنـت واحدهـا وهـى أعضـاؤك انتثـرت، النهـر يلبـس الأقنعـة، ملامـح مـن الوجـه الأمبيدوقليسـي، احتفاليـة المومياء المتوحشـة، شـهادة البـكاء فى زمـن الضحـك، كتـاب الأرض والـدم، رسـوم علـى قشـرة الليـل، إلخ) ونشـرت هـذه الدواويـن فـى مصـر، بغـداد، دمشـق، لنـدن.

هلاوس ليلية

ولم يكتـف عفيفـى بكتابـة الشـعر فقط بـل كتب أيضا للناشـئة قصصـا غايـة فـى الروعـة، نشـرها فـى كتـاب اسـماه "مسـامرات الأطفـال كـى ينامـوا" كمـا كتـب جانبـا مـن سـيرته الذاتيـة فـى كتـاب "أوائـل زيـارات الدهشـة" نشـرته لـه دار الشـروق، وعـن نفـس الـدار صـدت أعماله الشـعرية الكاملـة فى ثلاث أجـزاء عام ٢٠٠٠، بعـد أن أدارت لـه المؤسسـات الثقافية الحكومية ظهرها.

ولمـا حدثـت حـرب الخليـج فـى بدايـات التسـعينات كان مطـر مـن أشـد المعارضـين لهـا، لـذا اعتقلتـه السـلطة المصريـة عـام ١٩٩١ نتيجـة معارضتـه السياسـة المصريـة فـى موقفهـا مـن الحـرب علـى العـراق التـى اسـتهدفت إخـراج الجيـش العراقـى مـن الكويـت، وقتهـا أفـردت مجلـة أدب ونقـد المصريـة ملفـاً عـن عفيفـى مطـر، شـارك فيـه عـدد كبـير مـن الكتـاب والشـعراء وكان لىّ شـرف المشـاركة فـى الملـف

بقصيدة "تسبيح" مهداه لعفيفى مطر، نشرت فى ديوانى الأول "البندق طاش رشاش على شوي" الذى صدر عام ١٩٩٦ عن قصور الثقافة وسجل مطر تجربة الاعتقال فى عدة قصائد أشهرها "هلاوس ليلة ظمأ" وكان من نتاجها ديوان "احتفاليات المومياء المتوحشة" عام ١٩٩٢.

يقول عنه الشاعر الفلسطينى المتوكل طه: لقد استطاع محمد عفيفى مطر – هذا الشاعر المنسى أو المغيب – أن يقدم صيغة مبدعة لعلاقة الشاعر/ المثقف بالسلطة وإفرازاتها وهيمنتها وما تضعه حولها من نخب تتبنى وتردد أطروحاتها، خالقة بذلك "ظلاماً" كثيفا يمنع الرؤيا ويقتل الرؤية ويغتال البصرة والحياة، إن مفردة "الظلام" التى يستعملها الشاعر محمد عفيفى مطر هى من أكثر المفردات تكرارا فى دواوينه، الظلام الذى يعيشه الشاعر ليس فقط فى زنزانته التى يسميها "جحيماً" وإنما فى لحظته المعيشة وفى تاريخه.

إن ما يعانيه ويكابده الشاعر جعله يرى الأشياء من جديد ويقرأ التاريخ بعيون وروح جديدة أو لنقل، بنظرية جديدة هى نظرية "الخوف من الخوف" وما بين "الظلام والخوف" يكون الموت، وفى هذه الكآبة والقتامة تلد قصيدة الشاعر محمد عفيفى مطر، قصيدة تضج بالألم والفزع والكوابيس والرؤى المقتولة والأمانى المغدورة ووجوه الأحبة الموتى والمدن التى تسكنها الأشباح كما أنها قصيدة مركبة تستند إلى الأسطورة التى يعيد إنتاجها بلغة حداثية

فلسفية، تؤكد أن صاحبها شاعر رجل يستحق الاحترام، ظل عفيفى مطر يكتب قصيدته دون انتظار لشئ، غير إيمانه بما يكتبه وتجويده والعكوف عليه، ليصبح مغايراً للسائد والمطروح على الساحة الثقافية العربية وقد كان له ما أمن به ليصبح له بصمة خاصة، وقصيدة منفردة.

جاءت جائزة الدولة التشجيعية لعفيفى مطر عام ١٩٨٩ متأخرة، وكان يستحقها قبل ذلك بسنوات، وبعد حصوله على التشجيعية بعشر سنوات كاملة يأتى التكرم له من خارج مصر، وعلى وجه التحديد من الإمارات العربية، بحصوله على جائزة سلطان العويس الأدبية فى الشعر عام ١٩٩٩، ولأن مصر لا تضن على أبنائها الشرفاء، وأن كانت تغض الطرف عنهم بعض الوقت، لكنها لا تنساهم أبدا، لذا جاءت جائزة الدولة التقديرية فى الشعر عام ٢٠٠٦ تتويجاً لمسيرته الشعرية العطرة.

التى يقول عنها الشاعر حلمى سالم: حقق عفيفى مطر موقعا مميزا على الخريطة الشعرية المصرية والعربية، باعتباره واحداً من رواد التجريب والتجديد فى القصيدة العربية المعاصرة، إن نظرة فاحصة لشعر مطر تنفى نفيا قاطعاً الصفة الشريرة التى ألصقها به نفاد كثيرون: "الانعزال عن هموم الناس والاستغراق فى غموض متعال على الآم الجموع فى الوقت الذى كانت قصائد كثير من الشعراء غارقة فى هموم الذات المفرطة) كان مطر يقول: أبى ضم فضله العباءة على

منكبيه الهزيلين فاهتز تابوت قلبى ونادي: خذ السمسم المر، هذا رغيف الشعير تبلغ به لقمة كى تذق الدماء التى شربتها السنابل تذوق به طعم لحمى الذى كان يشويه صهد النهار المخاتل تبلغ به واحذر الأرض دنياك دنيا الرأى الفجاءة".

ثقافات متنوعة

وإن كان عفيفى مطر ظلم نقديا بسبب اتهامه بالغموض وانفضاض النقاد عن تجربته الشعرية التى تستحق العكوف عليها بجدية ونفض التراب من فوق وجهها ليظهر معدنها اللامع البراق، الذى يشبه الذهب فى لمعانه وأصالته، اختار النقاد السهل وأبوا عدم السباحة فى بحور عفيفى مطر المغرقة، فأشعاره مستقاة من ثقافات متنوعة، فكما يقول هو عنها: "فى حركة الدائرة الأولى كانت القراءات المتسعة تجعلنى أشعر بالانتماء لعائلة الكلام الجميل وانتسب لمجامعها المتلاطمة انتساب صاحب الحق فى الجدل والتأثر والمشاغبة، فى لوامع تتشظى هنا وهناك من التراث المصرى القديم والثقافة الإغريقية والتراث العربى ومدارس الجدل والتفلسف والتصوف الإسلامية، على أرضية ومهاد شاسع من التراث الشعبى من خرافات ومواويل وملاحم، فدخلت فى معمعة التأويل وإعادة القراءة لكل ما أعرف فى ظل سؤال باطش غلاب حول السلطة، التى ازدادت فداحة كراهيتى لها ولشخوصها وتقليدها وممارساتها،

لا فى زمن محدد، بل منذ الملوك الآلهة حتى عسكرى المرور "أبو شلن" ومن قتلة سقراط وهيباتيا حتى قتلة سيد قطب، ومن صلف التعصب القومى والعنصرية، عند أرسطو، ووحوش فرسان الصليب حتى مجازر عصبة الأمم والأمم المتحدة، ومن الدم النازل السيال من صفحات التوراة حتى مجزرة الخامس من يونيه، إلخ، كان السؤال الباطش المتوحش، وكل إجاباته تتحول إلى أسئلة أشد هولا، يحرمنى الهدوء والنوم، ويشوش على القصائد ويدفعنى من صراخ مباشر فج إلى فظاظة السخرية الكئيبة إلى اليأس المقهور من كل ما أرى وأسمع إلى نزوع انتحارى فى الصدام، وكانت تجليات هذه المكابدة القاسية فى الدواوين الأربعة: ملامح من الوجه الأمبيذوقليسي، ورسوم على قشرة الليل، كتاب الأرض والدم، شهادة البكاء من زمن الضحك.

ويقول الشاعر الراحل د. وليد منير فى شهادته عن **عفيفى مطر**: "قصيدة محمد عفيفى مطر قصيدة نادرة العافية والعنفوان، تتدفق كالنهر أو كالشلال، وتصر كالريح العنيفة، وتفور كالبركان، وهى تتميز بالغربة أكثر مما تتميز بالغموض، والغرابة نوع من السحر، من كسر التوقع، من الكشف عن المجهول، ومن تحريك الرمز فى اتجاه أكثر تأثيراً مما تعودنا عليه.

أنا الخطى

وفى دمى الطريق

أنا الذى تزرعه الكتابة

فى الريح أو تطرحه فى القشر

منطفئا وساقطا فى نفسه،

وضاربا جبهته فى الصخر

كى يفتح المجهول فى مملكة الأشياء

الحائط المقام دون وجهه والقبر.

لعل الفلاح المصرى الخالد وسر الكتابة الهيروغليفية التى تسكن روح الشاعر، وأشياء أخرى ليس أقلها وهج الرغبة أو فج الموت، خريطة ذاكرة درامية يدور ماؤها دورانا دائبا ليسقى جذور الكلام والشهود، أيضا بمعناه الصوفى العميق، كان – دوما – قادراً فى شعر عفيفى مطر أن يجعل من كل التعارضات والتباينات الكثيرة مشهداً واحداً نابعاً من بؤرة كلية صغيرة هى الأنا:

أسندت رأسى مثلاً بالشعر والقدرة

أغفيت، أعضائى هى الأرض الوسيعة

والخليفة قبضة من طينتى

obeikandl.com

والناس أبنائى

الطمى هو الواقع الحى المتحرك الذى تبدأ منه أسطورة الخلق عند مطر، والطمى هو الحقل والنيل والآنية والخصاب والوشم والجسد، هذه هى الحروف الأولى للغة اشتعال الشعر فى لا وعى الشاعر.

طقسية الألفة والغرابة

وأما الشاعر جمال القصاص فيقول عنه: مطر محرض عظيم فى شعره، وهو شاعر متمرد من الطراز الأول، يكره لعبة الحياد حيال ما يري، وما يحس، وما يتصور، وما يعتقد، تنفتح قصائده بتلقائية شديدة على الأشياء والعناصر، وكأنها تقطير لجذرية الحياة والوجود:

شمس الدمع طالعة، وفى فوديك نافذة

العصافير الأسيرة، صمتك الدهرى

خبز فى انتظار الأكلين، خطاك

نقش دائم التجوال فى لحم الكتابة، أنت

تغتصب الهيولى زوجة وتردها مكتوبة فى مصحف

الأرض البراح، وأنت فى

ظلماتها شبح يضئ نوافر الجسد

المكدس بالفصول، يضئ تحت

دوائر الثديين أجران السنابل والمواويل

المليئة بالخيول الخضر يفتح فى عشقها

وطنا ومملكة لأبناء السبيل

منذ البداية أدهشتنى طقسية الألفة والغرابة فى شعر مطر، وفانتازيا الخيال الخصب، الملحق النزق، المشرب بروح ريفية، مشوبة بطينة الأساطير والخرافة الشعبية".

ويقول الشاعر صالح اللقاني: "إن الأكوان الشعرية التى صاغها لنا محمد عفيفى مطر تمثل منجزاً فريداً فى شعرنا العربى سوف يظل ساحة للدرس والاستلهام، وإن الدين الذى يدين له به الشعر العربى عامة وجيل السبعينات خاصة لهو دين كبير، فهو واحد من أدباء الحداثة المؤسسين الذين تحرر الخيال الشعرى على أيديهم الذين دفعوا بلغة الشعر إلى مواطن لم تبلغها الحساسية الشعرية من قبل".

ويقول عفيفى مطر عن الموت فى ختام شهادته المذكورة سلفاً: "وهل تتحقق فى الموت روعة الخلاص من رؤية الوقاحة وادعاءات الأذلاء المهانين وغرور وبرطمة المهزومين السعداء!!.

اعترف ملء القلب والروح من أنس أنيس بالحيوات والأغنام وتربية النحل وملاعبة التكوينات الغامضة لموسيقى وصور القصيدة وحكايات الأولاد ومشاكسات حفيدى أروى

وأحمد، وأرتوى بحنان أبنتى ناهد ورحمة، وأتأمل ساخراً وضاحكا من محاولات ابنى لؤى وهو يحاول إعادة تربيتى وتأهيلى لشرف الانتساب إليه".

فى تلويحة الوداع أقول: حياتى مغسولة بعرقي، ولقمتى من عصارة كدحى وكريم استحقاقي، لم أغلق بابا فى وجه أحد، ولم أختطف شيئا من يد أحد، ولم أكن عوناً على كذب أو ظلم أو فساد، اللهم فأشهد.

★ نشرت فى جريدة القاهرة ٣ أغسطس ٢٠١٠

obeikandl.com